أبيـــلارد

اللاهوتى الحـــر

بقلم دكتور إسحق عبيد / مدرس العصور الوسطى
بكلية الآداب جامعة عين شمس

يقول الشاعر مارلو فى التعبير عن انطلاقة العقل بحثاً وراء المعرفة الحرة :

Still Climbing after Knowledge infinite
And ever moving as the restless Sph eres

« ويظل يحلق فيما وراء المعرفة اللانهائية »

« ويسبح أبداً كدوائر لانهدأ »

ويصدق هذا الوصف أشد مايصدق على بطل مقالنا ، بطرس أبيلاردوس بالاتينوس (١٠٧٩ — ١١٤٢ م) ، فهو الذى أنشد أعذب ألحان الحرية — حرية الفكر — فى تحد صارخ ضد جبروت الكنيسة وأحبارها المتربصين لكى يئدوا كل وليد فكر حر ، فى ذلك الحين الوسيط من القرن الثانى عشر للميلاد . اسمع ابيلارد فى هذه الأبيات اللاتينية العذبة ، وهو يتوسل إلى الطير أن يمن عليه بغصنه صامتاً برهة من الزمان ، حتى يشدو هو فيها بعضا مما يعتمل فى قلبه من همان وأغان .

Sile, Philomene,
Pro tempore,
Surge Cantilena,
de Pe Ctore

صمتا أيها المحبوب
من أجل الوقت
ولتخرج الأنشودة من القلب .

ولد أبيلارد لأسرة نبيلة : فوالده هو سيد (لورد) إقطاعية Le Pallet في إقليم بريتانى الواقع إلى جنوبى نهر اللوار بفرنسا .

وقد تلقى أبيلارد الصبي تعليمه فى بلدة Loches حيث درس المنطق ما بين عامى ١٠٩٤-١١٠٦ ثم أنتقل إلى باريس حيث تتلمذ على يد كل من روسلينوس ووليم من شامبو . ثم ضطلع الفتى بالتدريس فى مدارس ميلون وكوربيل. وبعد قليل عاوده الحنين إلى باريس فالتحق بمدرسة وليم دى شامبو (guillaume de Champeaux) ولكنه سرعان ماتمرد ضد أستاذه وهاجم آراءه فى مسألة « الكليات » universals

بعد هذا اضطلع ابيلارد بالتعليم فى مدرسة مونت سانت جنفياف ، ثم مالبث أن التحق بمدرسة العلم أنسلم من لاوون أستاذ اللاهوت المرموق (حوالى سنة ١١١٤ غير أن أبيلارد سرعان ماهاجم آراء أستاذه الكبير . وعاد أبيلارد مرة أخرى إلى باريس ليعلم المنطق واللاهوت فى مدرسة نوتردام .

إن هذا الفتى المارف من المشاءين لم يكن يعرف الاستقرار فى مكان واحد فهو يطلب العلم والمعرفة أينما وجدهما . وليس أدل على طبيعة مزاجه من أنه كان قد تمرد أول ماتمرد ضد هرم عائلته الإقطاعية ، وضد تقاليد فرنسا والنبالة ، فنجده يتنازل طواعية لأخيه الأصغر عن حقه فى الإقطاع ، وكذا عن تقلد زخرف الفروسية وهكذا سعى ذلك العاشق الولهان وراء نبع المعرفة ينهل منها ، وهو بعد ظمآن حتى إذا ما ارتوت تلك النبتة الأصيلة ، أثمرت فأذهلت أروقة جامعة باريس وبيعها وصالوناتها الأدبية .

بشر أبيلارد بالخلاص وذلك بتحرير العقل وملكاته من أغلال الكلمة الملاة ورق الكتب ، فحرر بهذا النداء عقلية العصر الوسيط من طغيان الكهنوت ومن صلف العلمانية المجهولة . وسنرى من تاريخ مأساته أنه المصلح الأول للكنيسة ، والرائد لمنهاج الديالكتيكا ، والإلقاء فى الحركة الرومانسية .

عندما طبقت شهرة أبيلارد العلمية كل الأفاق طلب إليه أحد كبار رجال الدين في نوتردام ، واسمه فولبير ، أن يقوم بالتدريس لإبنة أخيه الفتاة إلوايز Heloise وإلوايز هذه جد فاتنة فطنة ، وهي بعد هذا تعشق المعرفة الحرة وتبغض القيود . وقع المعلم في غرام تلميذته الجميلة ، وصحت باريس ذات يوم على نبأ هروب الأستاذ الراهب وتلميذته الفتاة وسرت القصة في ربوع فرنسا سريان النار في الهشيم ، فأمست حديث أوروبا كلها . وبينما العلاقة بين العاريين تثمر جنينا ، كانت لعنات رجال الإكليروس تطارد أبيلارد، فأشاروا إليه على أنه لوسيفر وبعلزبول ، وأذاعوا أنه لابد قد اختطف إلى فوق لكي يطرح به غضب الرب إلى سعير الجحيم حيث البكاء وصرير الأسنان ! هذا بينما تناقل الشباب على ضفاف السين غـــزل أبيلارد وعشيقته في غابات فرنسا وبراريها ، وراحوا ينشدون هاتيك الرومانسيات على قارعة الطريق وعلى أعتاب الكاتدرائيات ونوتردام . استمع إلى إيلوايز ، وهي الآن زوج في الخفاء لأبيلارد تخاطبه تقول :

« كل المدائن ، لابل والقرى كلها هبت لتنعم بحسن مقدمك :

وتلك العيون جميعا لاتملك إلا أن تحملق في وجهك ، أيا زينة الرجال »

ولـكن فولبير ـ عم الفتاة إلوايز قد نجح في الانتقام من أبيلارد فلقد استأجر من أوقع به في الشرك ، وقاموا بخصي الرجل وحرمانه من كينونة الرجولة .

لـكن جوليات لم ينهزم ، فالدنيا كلها تلهث من خلفه ، وهو الآن يحمل على كتفيه جثة مأساته ، وإنما هو يتوقف بين الحين والحين ليلتقط هراوة هرقل (وهي هنا قلم أبيلارد ويراع الحرية) ليحطم بها كل المسلمات من القضايا عند المناطقة والفلاسفة ورجال اللاهوت . إنه رجل الديالـكتيكا !!

وهذا يقودنا إلى البحث في فـكر أبيلارد .

كانت الفلسفة التى تشغل العصر الذى ظهر فيه أبيلارد تدور حول القضايا الكلية Universals ، وتقصى العلاقة بين الكليات (أو النوع genere) وبين جزء (فرد) هذا الكل أو النوع .

وتلكم هى قضية العام والخاص فى الوجود . وكانت مشكلات هذه القضية مطروحة لدى العارفين فى تساؤلات من قبيل : الصلة بين كلى مجرد كقولنا « حيوان » أو « آدمى » بالنسبة إلى ملموس الواحد الفرد فى عوالم الآدمية أو بين مملكة الحيوان. ثم هل هذه المسميات الكلية هى مجرد مدركات عقلية أم أن لها واقعاً محسوساً؟

وكانت نوعية الإجابة على هـــذه الأسئلة هى الفيصل بين نهجين مختلفين من الفلسفة فى ذلك العصر : فكانت هنالك مدرسة الإسميين Nominalists ثم مدرسة الواقعيين Realists .

أما الإسميون فقد رأوا أن الكليات هى مجرد مسميات أو مدركات لا وجود لها إلا فى اصطلاحنا العقلى ونعبر عنها فى دلالاتنا الصوتية Flatus Vocis ، ذلك لأن ليس لها ترجمة فى الواقع الملموس ، أما الكينونة والوجود فهى من حق الخاص أو الجزء أو الفرد لهذا المدرك العقلى أو ذاك .

هذا فى حين أن أتباع المدرسة الواقعية قالوا بأن للكليات وجوداً أسبق لوجود الفرديات ، كما وأن كل جزء يحمل فى طياته جوهر كله (نوعه) .

أما أبيلارد فقد طرح كل هذه القضايا من جديد وقام بسلبها Negatiou أى عراها تماما وراح يتناولها بمنهج الشك أى أنه يضع السؤال ويتقصى جوابه ، ثم يناقش ضـــديات ما قد يصل إليه من جواب . طرح أبيلارد من جديد الأسئلة الثلاثة التى أوردها الفيلسوف Porhpyry فى كتابه بعنوان Isagoge دون أن يقدم لها جوابا شافيا . ثم أضاف أبيلادر عليها سؤالا رابعا من عنـــده . وهى تجرى كالآتى :

١ ـــ هل للـكليات واقع أو وجود ، أم أنها مجرد مدركات عقلية؟

٢ ـــ وإذا افترضنا أن للـكليات واقعاً ، فهل هذا الواقع أو الوجود محسوس (مادى) أم غير محسوس (غير مادى) ؟

٣ ـــ هل وجود الـكلى قاصر على ذاته لذاته، أم أن له وجوداً فى المحسوسات؟

٤ ـــ إذا قلنا بأن لاجود للجزء ، فهل رغم هذا يـكون لـكل (نوع) هـذا الجزء وجود ؟ أو بطريقة أخرى: هل وجود الـكل وقف على تواجد جزءه أم لا ؟

كان الفيلسوف بوء ثيوس (٤٧٠ ـــ ٥٢٥ م) هو أول من حاول إيجاد حل لهذه المشكلات فقال بأن الجزء (الخاص ـــ الفرد) إن هو إلا تجسيد للـكل ، بمعنى إن الخاص فى خواصه المادية وأعراضه الملموسة يمثل كل هذا الخاص . وساق مثالا على هذا بأن كلا من أفلاطون وارسطو ـــ على سبيل المثال ـــ إن هما إلا تعبيران فرديان للنوع وهو « الإنسان » . وهذا المصطلح الأخير (الإنسان) ليست له دلالة مادية، ولا يمكن إدراك هذا المصطلح إلا إدراكا عقلياً مجرداً . وبوء ثيوس على هذا هو رائد المدرسة الواقعية فى العصور الوسطى .

أما الفيلسوف روسلينوس ومـدرسته فيرون أن الوجود قاصر على الخاص فحسب ، أما الـكليات (العام) فهى مجرد تسميات أو ألفاظ (VOX) . وهـذه هى المدرسة الإسمية .

هاجم أبيلارد المدرستين . الأولى ـــ الواقعية ـــ لأنها تنـكر على الخاص جوهره أو كيانه ، وهذا ـــ فى رأيه ـــ ضـد طبيعة الأمور : فإذا سلمنـا بقول الواقعيين أن الجوهر موجود قبل خلق الخاص (أو الجزء) ، فمعنى هذا أنه لن تـكون هناك فوارق فى الصفات بين فرد وآخر ، لأن جميـع الأفراد يشتركون فى جوهر واحـد . والأخطر من هذا ـــ وفقا لذات النظرية ـــ أن الإنسان يصبح شريكا

للحيوان — كالكلاب والخيل — فى الأصل genere وبذلك تختلط الأصول العاقلة مع غير العاقلة .

كذلك عاب أبيلارد على الإسميين إنكارهم التام للكليات ، واهتمامهم الزائد بالخاص .

كان على أبيلارد بعد هذا أن يقدم مفهوما مقنعا للكليات ، وفى هذا نجده يقول إن الكل هو ما يتواجد فى الأشياء من صفات وخواص وليس للأشياء ذاتها، فهو ليس جوهر الجزء أو الشىء وإنما هو خواصه . وفى حالة الفرد الأدنى فإن الكل يعنى لا الإنسان الفرد فى حدذاته وإنما كيان هذا الإنسان ، وهى الحاجة السائدة فى كل أفراد الجنس الأدنى برمته . ولما كان من المتعذر الفصل بين هذه الخاصية وبين الفرد ذاته ، فإنه لايمكن فهم كنه الكل إلا من خلال الجزء . وقد خلص من هذا إلى قوله الشهير :

« إن الكل إن هو إلا مفهوم يستنبطه العقل من خلال الجزء ، ذلك لأن كل إدراك واع — على مايبدو — إنما منبعه من الجزء . وعندما نلمس الجزئيات بعونة حواسنا ، نبدأ فى إدراكها فى الصور العقلية » .

وفى اللاهوتيات وضع أبيلارد كتابه « نعم ولا Sic et Non وفيه يطرح المؤلف عديداً من المسائل اللاهوتية فى صيغة السؤال ، ثم يسوق سلب هذه المسائل أيضاً فى أضدادها . وهدف الكاتب من هذا المنهج الديالكتيكى أن يصل إلى الحقيقة — إن كان هنالك حقائق — عن طريق العقل ؟ كذلك بتمحيص مختلف وجود وأبعاد القضايا اللاهوتية . هو يبدأ دائما بإثبات بطلان حجج آباء الكنيسة الباكرين فى كل قضية يعرض لها . وشعاره فى هذا قوله : إن الشك يقودنا إلى البحث ، والبحث ، بدوره يؤدى بنا إلى مشارف اليقين » وقد طرح ابيلارد فى

هذا المؤلف ١٥٠ سؤالا تدور حول المسائل اللاهوتية المعيصة كقضية ميلاد المسيح وتجسد الكلمة Logos ، وبتولية السيدة مريم ، ولاهوت المسيح وناسوته ، وتحول القربان إلى جسد السيد المسيح إلى آخره من هذه القضايا . وقد قدم أبيلارد تفسيراً لواحدة من كبرى المسائل اللاهوتية ، ألا وهي طبيعة الثالوث : فهو يرى أن الله واحد فى ثلاثة أقانيم ، ويشير كل أقنوم من هذه الثلاث إلى خواص: فالأب يمثل خاصية القوة ، والآبن يمثل خاصية الوعى ، بينما يمثل الروح القدس خاصية الخير . غير أن هذا التفسير الأبيلاردى قد أدين بالهرطقة فى مجمع Sens سنة ١١٤٢م كذلك هاجم القديس برنارد ده كليرفوه هذا التفسير بأنه شبيه بحجج الهراطقة البدائيين . آريوس وبيلاجيوس ونسطور .

ولقد وضع أبيلارد كتابا آخر بعنوان « حوار بين فيلسوف ويهودى ومسيحى Dialogus inter Phiosophum, judaeum et Christianum يندد فيه بالتسليم الغيبي عند الثانى والثالث ، ويغلب عليهما الأول لأنه يقر ملكات العقل ، كما وأنه يهيب بضرورة انتهاج مبدأ الشك والديالكتيكا لأن هذا هو السبيل الأوحد للإقناع والفهم الراسخ .

وهو بعد هذا لا يجد حرجاً فى تناول كلمات الكتاب المقدس بالبحث ، وحجته فى ذلك أن هذا الكتاب إنما هو عمل الله ، نقله إلينا بشر مثلنا وهم عرضة للخطأ ، وسجله كتبة بشر ، ثم فسره لنا بشر أيضا ليسوا منزهين عن الخطأ ، ذلك لأن اللغة إن هى إلا أداة عاجزة للتعبير ، وهى أيضا عرضة للتعبير والتأويل .

وفى الأخلاقيات Ethics نقرأ آراء جريئة لأبيلارد فى مؤلفه بعنوان « أعرف نفسك » Scito te ipsum .

وعندما يعرج الكاتب على قضية الخطيئة الكبرى لآدم وحواء ، نجده ثائراً ضد آراء القديس أغسطينوس ومن ورائه الكنيسة الكاثوليكية برمتها .

فهو لايرى فيما أقدم عليه آدم وحواء من أكل الثمرة المحرمة فى جنة عدن إثماً وهو بعد هذا يميز بين الخطأ والإثم : فالأول يمثل ميلا نحو شيء محظور ، أما الأثم فهو العمل الذى يغضب الرب . ويمضى الكاتب ليجاهر بان الاثم هذا عنصر سلبي لاوجود له ، فهو تضاد أو انتفاء أو غياب الخير ، فحيثما توافر الخير لاوجود للاثم . هذا كما أن أى فعل ماهو إلا حاصل نية ، ولا يمكن الحكم عليه بالخير أو بالشر إلا على ضوء استقراء هذه النوايا ، لمعرفة إذا ماكان صاحبها كان يقصد بها خيراً أم شراً .

ومن هنا فقد انتهى أبيلا رد إلى قوله : « لافرق بين عمل وآخر فى حد ذاته وإنما يصبح هذا العمل خيراً وذاك شراً على قدر نوايا صاحب هذا العمل أو ذاك » . ومن هذا الاستنتاج أنكر أبيلارد حاجة الانسان إلى وصاية غيبية لتعينه على فعل الخير ، ومن ثم فلا حاجة البتة إلى الدوغما ولا إلى الكنيسة . وبهذا نقل أبيلارد موضوع الاخلاقيات من عوالم الغيبيات إلى كادر ذاتى بحت ، فحرر الانسان الفرد من الاوصياء ، وباتت الحقيقة برمتها الكونية ملكا للبشر الفرد على أساس من الفهم العاقل ، وأدار أبيلارد ظهره لمفاهيم الكاثوليكية وآرائها الغامضة عن الخير والشر .

بعد أن شن القديس برنارد دى كليرفوه حرباً مسعورة ضد أبيلارد ، تحداه هذا الاخير أن يلقاه فى حوار على مرأى ومسمع من أساتذة اللاهوت والفلسفة فى باريس . ولكن برنارد ارتعد من فكرة لقاء أبيلارد ولم يجرؤ على أن يلتقط القفاز الذى ألقى به الفيلسوف فى وجهه . ونجح برنارد بفضل صلاته القوية بتلميذه يوجين الثالث الجالس على عرش البابوية فى أن يدفع آراء أبيلارد بالهرطقة .

ولـكن أبيلارد قرر أن يسافر بنفسه إلى روما ليطعن فى هـذا القرار ولـكن صديقه المخلص بطرس الشهير بالوقور Le Venerable رئيس دير كلونى أقنعه بالعدول عن هذه الرحلة ، واستضافه فى ديره فى سانت مارسيل على مقربة من بلدة شالون سير ساءون ، وبقى أبيلارد هناك حتى توفى فى ٢١ ابريل لسنة ١١٤٢ م .

كتب بطرس الوقور رئيس دير كلونى إلى إلواز — وهى الآن رئيسة دير الباراقليط — ينقل إليها النبأ الحزين فى الآتى :

« إن هذا الذى كان لك (tuo illo) ، العظيم بطـرس أبيلارد ، قد مات . لقد كان ثروة تفوق كنوز الذهب . لشد ما كان حريصا على حضور القداسات منكسراً صامتا لايرفع الطرف عن الـكتاب ، وهو سيد العلماء . نعم « تعلموا منى فأنا بسيط متواضع القلب » . أيتها الأخت الغالية ، إن هذا الذى ربط الله بينـك وبينه ذات يوم فصرتما جسداً واحداً ، ثم ثبت الله هذا الرباط إلى ماهو أشد وأقوى فى المحبة العلوية حيث خدمة الله ركعاً سجداً من بين الصابرين ، إن هذا الرجل قد ضمه المسيح إلى أحضانه مع القديسين ، وهو هنالك حتى المجىء الثانى يوم ينفخ كبير الملائكة فى البوق ، ويومها يفرح القلب بالمحبوب فى رحاب الأبدية » .

لاأجد أبلغ من شعر أبيلارد فى التدليل على معاناته المأساوية . استمع إليه ينشد يوم الجمعة الحزينة ، لعله يقصد هنا أنه هو أيضا قد صلب على يد الآثمين :

Solus ad Victimam Procedis, Domine,
morti te Offerens quam Venis to Ilere :
qnid nos miserrimi Possumus dicere
qui quae Commisimus Scimus te Iuere ?

وحبذا ، ياسيدى تتقدم الخطى نحو القربان

واهبا نفسك للموت شامخا

فما الذى تستطيع قوله كى « نبعثه من جديد »

تلك الأشياء التى ارتكبناها نعرف أنك تعانيها »

بقى أن نحصر أهم مؤلفات هذا العملاق ، فى الآتى :

1 — Theologia Summi Boni
2 — Theologia Chlristiana
3 — Theologia Scholarium
4 — Apologia
5 — Sic et Non
6 — Expositio in Hexaemeron
7 — Expositio in Epistolam ad Romanos
7 — Scito te ipsnm
9 — Dialogne inter philosophum, judaeum, at Christianum
10 — Logica Ingredientibus
11 — Logica nostrorum Petitoni
12 — Dialectica
13 — De Intellectibus
14 — Sententiae
15 — Historia Calamitatum